ملاحظات افتتاحيّة

اختيارُ مئة مبنى من اثنين وعشرين بلداً، منتشراً على مساحة واسعة، من حقبة تمتدّ لقرن كامل ليس بالمهمّة اليسيرة. الرحلة كانت مُستحقّة والنتيجة هنا، بين دفّتي هذا الكتاب. تألّف فريق للقيام بعمليّة الاختيار، وساهم أفراد الفريق بكتابة مقالات تناولت أبرز القضايا التي واجهها النتاج المعماريّ وتعامل معها. وأفصحت الفرصة هذه عن أمور ينفع استعراضها هنا. يتمثّل أوّلها بالحاجة الماسّة إلى البحث في عمارة العالم العربي، وذلك على نحو أسسيّ، موثّق، مُثبت، ومتقن. ويتمثّل ثانيها باكتشاف أنّ بعض الأرشيف موجود فعلًا، في حال مُتفرّقة وخام، تنتظر التنظيم ، على الرغم من قلّة المبادرات المتعلّقة بأرشفة العمارة وتوثيقها في منطقتنا. أمّا ثالثها، وفيما خصّ المضمون، فيتجسّد بتذكيرنا، مرّة أخرى، بالمدى الذي تكشف فيه العمارة عن روح الزمان والمكان. ويبدو القرن الذي مضى دائرًا بنا دورة كاملة، فيُعيدنا إلى القواعد التأسيسيّة، ويجبرنا على الوقوف أمام بدايات جديدة.

في وقت يشهد فيه العالم العربي حال اضطراب، مُختارًا إعادة صوغ نفسه، ومُعرّضًا مرّة أخرى للتجاذبات الخارجيّة، أو مدفوعًا إلى الأصوليّة الدينيّة، فإنّ النظر إلى القرن الماضي قد ينيرنا فعلاً. ففكرة العروبة، التي ظهرت دعاويها خلال الحكم العثماني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لم تتّضح معالمها إلّا مع حلول القرن العشرين. ودخل هذا المفهوم في مراحل شتّى تخلّلتها التوقّعات والإنجازات وخيبات الامل، كما تخلّلتها المراجعات النقدية. وتُبيّن المقالات المتنوّعة في هذا الكتاب المراحل المتعاقبة نفسها بالنسبة للعمارة، التي غالبًا ما واكبت الظروف السياسيّة.

ولم ترتبط المدن العربيّة على الدوام بقدر واحد، على الرغم من تشاركها في الرؤى ببعض الأحيان. وانتقل الألقُ من القاهرة وبغداد وبيروت إلى دبي، وأمكنة غيرها، وانتعشت مدن على حساب مدن أخرى في أوقات الحرب والاضطراب. من هنا، فإنّ سؤالنا عمّا يجمع العالم العربي غير اللغة العربيّة، يبدو سؤالًا مشروعًا. الجواب لن يأتي من العمارة فقط، وهذا ما تبيّنه على نحو واضح عملية اختيار هذه النماذج المعماريّة. لا يطمح هذا الكتاب إلى أن يكون كاتالوغًا شاملاً، أو دليلًا مرجعياً، بل هو مجال لاستعراض مشاريع إلى جانب بعضها البعض حيث يُظهر تجاورها في سياق واحد على هذه الصفحات مفارقات وتباينات لم تكن في الحسبان.

ركّزنا في المقام الأوّل على العمائر التي تتّصل بقضايا صياغة الهويّة والتعبير عن الكيان العام. كما فضّلنا تقديم الأبنية التي توفّرت رسومات تصاميمها وخرائطها، وذلك لإبراز فكرة الرؤية التصميمية وحضور المؤلّف، وأيضًا للدعوة إلى حفظ الأرشيف وتوثيق المادّة المعماريّة. واستبعدنا من مجموعتنا المشاريع التي لم تُبنَ، على أمل إعداد كتاب آخر عن العالم العربي الذي لم يُبنَ، وهذه كناية تُفصح بالكثير، لا عن العمارة فحسب. وما لن نتمكّن من تقديمه في الكتاب يُجرى توثيقه في نظام بيانات إلكترونيّ، ليشكّل مادّة تتوسّع على نحو مستمر.[1]

يصحّ القول أنّ العديد من الأبنية الرئيسة في العالم العربي، من العراق شرقاً إلى موريتانيا في المغرب، مروزًا بشبه الجزيرة العربيّة والمشرق وشرق أفريقيا، جرى تصميمها على يد أجانب جاؤوا مع الاستعمار والانتداب، وغيرهما من أنظمة الوصاية. والسبب كان غياب محترفي مهنة العمارة المتدرّبين محلّيًا، حيث أنّ بعض الدول انتظرت طويلًا ليتسنّى لها إطلاق برامج محلّية في الهندسة والعمارة. وسادت، ولو بمستويات مختلفة، ظاهرة المعماريّ الأجنبي الذي يسِمُ البلاد بعلامات معماريّة من تصميمه، وهي ظاهرة ما زالت حيّة للسبب السابق ذكره، كما أنّها ازدادت قوّةً الآن مع العولمة. وعلى الرغم من حقيقة وجود وصفات «إقليميّة» مغبركة، تكتسب شرعيّتها أحيانًا من مرجعيتها الأجنبيّة، فإنّ العديد من المحترفين، محليّين كانوا أم أجانب، ساهموا بحسّهم المهنيّ اليقظ، في تصاميم تستجيب لزمانها ومكانها.

مِنظّرو العمارة ومؤرّخوها لم يكونوا كثرًا في العالم العربي خلال القرن الفائت. والجزء الأكبر من المكتبة المعماريّة العربيّة يتألّف، في الحقيقة، من كتب ومقالات وضعها معماريّون ممارسون كتبوا عن أعمالهم، محاولين إيصال أفكارهم. حسن فتحي وكتابه «عمارة الفقراء»، سابا شبر وكراريسه العديدة، سيّد كريم و«مجلّة الجمارة»، رفعة الجادرجي وكتابه «الأخيضر والقصر البلّوري»، محمّد مكيّة، أنطوان تابت وغيرهم. والوقت شديد الملاءمة اليوم لقراءة هذه النصوص القيّمة، إذ أنّ الأسئلة التي سبق وطرحوها عن المكان والهويّة والتقليد والمعاصرة والملاءمة والاستدامة الاقتصاديّة – الاجتماعيّة – البيئيّة، تبقى أسئلة مطروحة في الوقت الراهن.

تُعلي عمارة اليوم شأن الاستجابة لبيئتها على حساب النقاش في الأسلوب. ونلاحظ، حين ننظر إلى ما سبق في القرن الماضي، أنّ الحداثة لم تكن غير مبالية كما جرى تصويرها، ولم يكن جميع المعماريين مشغولين، قبل كلّ شيء، بالأسلوب. وقام العديد من هؤلاء المعماريين، في وقت سبق الكلام عمّا بات يُسمّى التصميم المستدام، بإنجاز تصاميم مُحكمة، مُستندين إلى ما تعلّموه من تقاليد سبقتهم، ومتخطّينها أحيانًا. هذا النقاش العقيم في معظم الوقت، الدائر حول التراث والحداثة لن يُثمر إلّا إذا اعتبرنا أنّ تراثنا ليس سوى مجموعة حداثاتنا المتعاقبة.

هذه الأسئلة المتواترة، يُضاف إليها أخرى مُلحّة تتعلّق بالإسكان والبيئة وعولمة الثقافة، هي أسئلة مطروحة للنقاش. يأمل المركز العربي للعمارة في المساهمة بهذا النقاش كمنبر للبحث في عمارة العالم العربي. مشاركتنا في بينالي العمارة بمدينة البندقيّة ممكنة بفضل الدعوة المشكورة من مضيفتنا، مملكة البحرين، التي أولتنا الثقة للقيام بالعمل التجهيزي وإعداد الكتاب كمشاركة ثالثة لها بعد مشاركتيها السابقتين الناجحتين. إنها خطوة إضافيّة لجعل مهمّتنا أكثر فعاليّة وتأثيرًا.

جورج عربيد

ترجمه عن الإنكليزيّة فادي طفيلي

(1) نظام البيانات الإلكتروني موجود على الإنترنت WWW.ARAB-ARCHITECTURE.ORG